آنـذاك الأحداث. وكانت تعبيء الرأي العام ضد دريفوس، ممّا خلق جواً غير ملائم لضمان حياد المحـاكمـة. وفي نهاية الأمر، قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة، وجُرّد من رتبته علناً أمام الجمـاهـير، ونفي الى «جـزيـرة الشيطان» (ديفلز أيلاند) التي تقع على الساحل الافريقي، وكانت مستعمرة من قبل فرنسا. وقد رحّبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم.

أمّا الواقعة الثالثة، فهي حادثة ليو فرانك، وهو يهودي اميركي ولد في تكساس، ونشأ في بروكلين، واتهم في قضية العام ١٩٠٨. ويقال ان كونه يهودياً كان عنصراً هامّاً أثّر في محاكمته، وفي الاحداث التي تلتها. كان فرانك يعمل مديراً لمصنع أقلام في اتلانتا جورجيا، حيث قبض عليه بتهمة قتل فتاة بيضاء عمرها ١٣ عاماً، تدعى ماري فيغان، بعد محاولة اغتصابها. وقد حوكم فرانك وأُصدر حكم باعدامه. وحينما خفّف حاكم الولاية الحكم الى السجن مدى الحياة، هاجمت مجموعة من المواطنين السجن واختطفت فرانك وشنقته في المدينة التي ولدت، ودفنت، فيها ضحيّته المفترضة، وهو ما يسمّى في اللهجة الانكليزية ـ الاميركية lynching .

«تهمة الدم» في سياقها التاريخي

وترد الوقائع الثلاث السابقة في الكتابات الصهيونية بهذا التجريد. والنتائج التي يستخلصها القارىء، أو التي تُستخلص له، هي ان اليهود لا ينتمون الى مجتمعاتهم؛ اذ ان مجتمعات الأغيار تنبذهم وتضطهدهم، لا لذنب اقترفوه سوى لأنهم «يهود»! والفارق الوحيد هنا بين الصهيونيين وأعداء اليهـود ان الفـريق الثاني يقول ان كل المجتمعات تنبذ اليهود وتضطهدهم لأنهم يستحقون ذلك! ولكن الفريقين يتفقان على حتمية النبذ والاضطهاد، بسبب طبيعة اليهود الخاصة، وبالتالي حتمية «خروجهم».

وطبيعـة اليهـود الخـاصـة هذه هي التي تصبح «القومية اليهودية» في الخطاب الصهيوني، والاضـطهـاد و«النبـذ» همـا الحـركـة الطاردة من المجتمعـات الاصلية، و«الخروج» هو الهجرة الاستيـطانية الى فلسطين. وبالتالي، فنحن، من منظور أخلاقي ومعرفي وعملي، يجب ان نقف ضد معاداة اليهود. ومن النادر ان نجد مثل هذا التوافق شبه الكامل بين المستويات الثلاثة المتناقضة في أي قضية من القضايا؛ اذ عادة ما يوجد تناقض بين المنظورين، الاخلاقي والعملي؛ كما ان المنظورين، المعرفي والأخلاقي، قد لا يتفقان بالضرورة.

ولنبدأ بتهمة الدم، ولنحاول ان نضعها في سياق تاريخي انساني عام. ظهرت تهمة الدم بعد ان تحـوّل اليهـود في العـالم الغربي الى جماعة وسيطة تشتغل بالتجارة والرباء. وكان يتمّ تشبيههم بالأسفنجـة التي تمتص نقود كل الطبقات، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص، ثمّ يعتصرها الامبراطور لحسابه بعد ذلك (وهو أمر لم تكن تدركه الطبقات الشعبية). ومن هنا الاشارة الى اليهود كأعضـاء جمـاعة وسيطة (لا الى اليهود كيهود) على انهم مصّاصو دماء، وليس من الصعب على الوجدان الشعبي تحويل المجاز الى حقيقة.

وتوجيه تهمة الدم كان يعني، في واقع الأمر، شنق يهود عدّة، من ضمنهم عدد كبير من المرابين. فقد كانت هذه هي احدى أهمّ الوظائف التي اضطلع بها اليهود في التشكيل الحضاري الغربي. وكان هذا يعني، في كثير من الأحيان، سقوط الديون؛ أي ان توجيه تهمة الدم يشبه، من بعض الوجوه، التخـطيـط لسرقـة مصرف من المصـارف؛ وشنق اليهود كان بمثابة النجاح في هذه العملية؛ وهي